



الحمدُ لله رب العالمين ، وأصلِي وأسْلُمُ عَلَى الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَن تَبَعَهُم بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ أَمَا بَعْدُ :

خلق الله الخلق للابتلاء والاختبار، قال تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي بَيْدَهُ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ **لِيَبْلُوْكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** [الملك: 1, 2]، ثم أرسل لهم الرسل فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وأبى الله إلا أن يختبر المعلمين للإيمان، فقال تعالى: **{أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ** (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ **فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَافِرِينَ** [العنكبوت: 2, 3]، فتميز الخبيث من الطيب كما قال تعالى: **{مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}** [آل عمران: 179]، فثبتت الثابتون بفضل الله ورحمته ثم بأساسهم المتبين، وسقط المتساقطون بخذلان الله لهم فكانوا على شفا جرفٍ هارٍ فانهار بهم، قال تعالى: **{وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوَعِّظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْهِيَّاً** (66) وَإِذَا لَكَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (67) وَلَهُدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا [النساء: 66 – 68].

ولقد ضرب الله مثلاً للثابتين والمتساقطين على الطريق فقال: **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلَهَا تَابَتْ وَفَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ** (24) تُوتَيْ أَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ حَبِيبَةٍ كَشَجَرَةٍ حَبِيبَةٍ اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (26) يُتَبَّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقُوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضْلِلُ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعُلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ [إِبراهِيم: 24 – 27]، فابتدا الله سبحانه وتعالى بالتأصيل الحق وصفته، ثم بالتأصيل الباطل وصفته، ثم بثمرة كلا التأصيلين من الثبات وعدمه.

والكلمة الطيبة هي كلمة التوحيد – لا إله إلا الله – وكل دعوة لا تبني على هذا الأصل العظيم، فهي باطلة فاشلة، لأن التوحيد هو أول واجب وآخر واجب.

وهذه الكلمة لها جذورها الثابتة في تربة التقوى، فكان فرعها في السماء عالياً، لا يهتز للفتن، ولا تحركه الأهواء والمصالح، ولها ثمارها في كل حين، في الحرب والسلم، في مرحلة الضعف والقوة، بخلاف تلك الشجرة الخبيثة التي لا جذور لها ولا أصول، فما أن تأتي أول فتنه، وإذا بها تجتث من فوق الأرض، فلا تقوى على الثبات والصمود.

فلا تستغربن – أخي المسلم – أقوال وأفعال بعض المفكرين والقياديين والحكوميين فإن كل إنسان ينضح بما فيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"إِنَّمَا الْأَعْمَالُ كَالْوِعَاءِ إِذَا طَابَ أَسْفَلُهُ طَابَ أَعْلَاهُ وَإِذَا فَسَدَ أَسْفَلُهُ فَسَدَ أَعْلَاهُ"** رواه أحمد 4/94، وابن ماجه 4199، وصححه شيخنا الألباني في الصحيحة 1734.

وقال تعالى: **{وَالْبَلْدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِلَّوْمِ يَشْكُرُونَ}** [الأعراف: 17]

ولما كان التأصيل الحق –في نفوس الصحابة– قوياً، ما كان فيهم مبتدعٌ ولا ضالٌ، وقدموا الدين للناس غضاً طرياً، وأثمر التمار اليانعة الطيبة، التي أكل منها الناس على اختلاف الطبقات منهم عبر الزمان والمكان.

قال شيخ الإسلام في "منهاج السنة النبوية" 6/376: "وأما الخلفاء والصحابة، فكلُّ خير فيه المسلمين إلى يوم القيمة من الإيمان والإسلام والقرآن والعلم والمعارف والعبادات، ودخول الجنة والنجاة من النار، وانتصارهم على الكفار وعلو كلمة الله فإنما هو ببركة ما فعله الصحابة الذين بلغوا الدين وجاهدوا في سبيل الله، وكل مؤمن آمن بالله فللحشابة رضي الله عنهم عليه فضل إلى يوم القيمة".

وتأمل معي هذا الكلام بفهم دقيق وتفكير عميق، والذي قاله العلامة ابن القيم في كتابه الماتع "الفوائد" ص 275: "من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به، فإن البناء على قدر توثيق الأساس وإحكامه، فالاعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البناء، واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البناء سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البناء ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البناء أو كاد".

فالعارف همة تصحح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس فلا يثبت بنيانه أن يسقط.

قال تعالى: {أَفَمَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرَضُوا نِحْيَأُمْ مِنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَّا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَرَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ} [التوبه: 109].

فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعلى البناء وسطحه، كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس.

**وهذا الأساس أمران:**

الأول: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه.

فهذا أوثق أساس العبد عليه بنيانه، ويحسبه يعتلي البناء ما شاء"انتهى كلامه رحمه الله.

فانظر –رحمني الله وإياك– ببصرك وبصيرتك إلى واقع المسلمين اليوم، تجد الانهيارات في العمل الإسلامي، عند ذلك تدرك حقيقة مرة، وهي أن هذا العمل لم يؤسس على تقوى من الله ورضوان من نصوص الوحي وفقه أئمة القرون المفضلة في الدين.